صحيفة أدب وأخبار

عطفة القاياتى

للأستاذ حسن القاياتى

عطفة القاياتى فيما نتشهى ونتوسل ، و « عطفة الألايلى » فيما تسمى ولا نحب ، تلك عطفتنا العتيدة ، قائمة حيث يحتضنها « باب زويلة » عند ملتقاه بالسكرية ، فهى على يُسرى المقبل من حى الحسين بن على ، الذاهب إلى « باب زويلة »

عن يسارى إذا دخلت من البا ب وإن كنت خارجاً عن يمينى

تلك « عطفة الألابلى » فى بُهرتها دارنا القديمة الصغيرة «دار القاياتى»: مسلك ضنك مُلتوٍ كمجرى النفس وجحر الأفعى؛ أشدُّ من عرين الليث ظلمة ورهبة، وأضيق مسلكا من لهاة الليث

يتصدر العطفة ربع قديم عادى البنية ، ترحل عنه أهلوه من قدمه وخلوقته فهو خلاء قفر قام حرباً على المجتازين خشية التزلزل والتهادى .

أجل أيها الربع الذى خف أهله لقد بلغت فيك النوى ما تحاوله

ربع معطل خلاء، عُطِّل من الغيد والصباحة ، لا يطل اليوم من شرفاته ولا نوافذه الحسن ، ولا تشرف كعهدها رَبّات الدّل. فنوافذه الخالية الساجية كالعيون الثاكلة المفجعة لا يشرف منها الحب ولا تطّلع الفتنة

يُناوح هذا الربع المعطل بيت واهن متهالك ، طالما تهدم وابتنى، وابتنى فتهدم، أحوالاً وأفانين حتى انتسخ البيت الأصيل وأُعيد خلقاً آخر بالترقيع، فهو البيت وليس هو البيت كما قيل فى طيلسان ابن حرب :

بقى الرفو وانقضى الطيلسان ، لكثرة عرضه على الرفو والرقاء

يُسلم عطفتنا هذا الربع إلى ربع ثان يساويه أعرق منه فى البلى والخلاقة يملك حيزها الأكبر؛ شهدت بالأمس قُطّانه من الطبقة الدنيا المبتئسة يترحلون عنه خشية التداعى ويتناشدون بكاء على العطفة أو بكاء على الربع وعطفه

ما ربع ميّة معموراً يطيف به غيلان أبهى رباً من ربعها الخرب

ثم تتسلسل يمنة ويسرة منازل العطفة بعد هذين الربعين بيتاً بيتاً فتتشاكل هى كما تشاكل أهلوها وُهناً وضعة . وناهيك ساكنو الربوع حتى تشافه بيتنا الصغير فإذا هو معها كما قيل للعبادى : أى حاريك شر ؟ قال : هذا ثم هذا . تشابهت هذه البيوت فى الرثاثة والزراية حتى لتحسبها من التشابه بيتا واحداً مردد الصورة ، أو تحسب كل بيت منها إيطاء مع جاره وصاحبه، وليس فى الحارة كلها بيت للقصيد

على هذا الذى نصف تمضى فتتصل الطليعة الأولى من حارتنا حتى تفضى إلى منزل قائم تبلغك هذه الكلمة حديثاً عنه : منزل يتصدر كأنما تختتم به العطفة أو تُسد ، ولكنها تستمر فتطّرد بعده ؛ بيد أنها تتشعب إلى شعبتين ، تأخذ إحداهما ذات اليمين والثانية ذات الشمال كما تبسط ذراعيك للعناق !

تبارك الله ما أشرف وأنبل ! ما شهدنا كهذه العطفة عطفة زهراء سامية ولا قطان عطفة جُلهم بل كلهم من الطبقة الدنيا المتواضعة الوادعة ، «إسكاف» إلى جانب « كناس »، و «نجار» لدى « أديب » ، وما إلى هؤلاء . أجل ، لقد تنجب الحارات ولا كمن أنجبت حارتنا من « عزام » الإسكاف و « موسى » الزّبال و « كريمة » النجار و « السيد » الشاعر

وما شر الثلاثة أمّ عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا

تلك حلية السكان فى عطفتنا . ألست تشهدهم أيها القارئ ملء النفس ، فكيف ظنك بزميلك الشاعر الفحل وقد خرج على هذا الملأ فى وجاهته وزينته؟ أليس يزدهيك منه أنه أظهر أهل الحى نبلاً وأبينهم وجاهة ؟

لم أر شيئاً حسناً منذ دخلت اليمنا
فيا شقاء بلدة أجل من فيها أنا

ليس هذا وحده مما يشق على النفس والبصر فقد انتحى قاصية من العطفة حمام عتيق ومستوقد حمام سالت عليهما (الصحة) عجلات ومركبات تحمل القمامة ذهابا وجيئة ، حتى إذا التقت مركب فى مسالكها بمركب غصت بهما حلاقم العطفة وسدّ متنفس الطريق فقل فى حبسة بل غصة صادعة كغصة الماء لا يسيغها الماء !

لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

إذا راح سدنة حمامنا أو اغتدوا عليه يحملون قدور « الفول المدمس » المتفخة السوداء فقل فى أشباه الحلاليف تحمل الحلاليف ! !

أنا ابن الذي لا تنزل الدهر قدرُه   وإن نزلت يوماً فسوف تعود
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره   فمنهم قيام حولها وقعود

على أننا وإن تناولنا قدور « الفول المدمس » بهذه الدعابة فما نتعمد لها فضيلة ولا نغض من قدر، تلك أسوة البائسين بالسراة ومائدة الصعلوكين معاً والمالكين، على حالة من الدنية شحيحة مناعة ليس لنا فيها طعام ابن جدعان ولا جفنة آل المحلق

نفى الذم عن آل المحلق جفنة   كجابية السَّيْح العراقى تفهَقُ

لقد رمتنا هـذه الحضارة والمدنية بمأدبات ومطاعم باخلة جُلّ ما تتسمح به قدور وصحاف قدّرتها الصناعة تقديراً فهى دقيقة زهراء كالدراهم والدنانير، غالية كأنما تطبخ فيها الدراهم والدنانير :

رأيت قدور الناس سوداً من الصَّلَى
وقـدر الرقاشيين زهراء كالبدر
إذا ما تنادوا للرحيل سعى بها   أمامهم الحولىُّ من ولد الذر

يعصف بنا مستوقد الحمام عصفته ويهب إعصاره، فحسبك أن تعرف أن الله إنما أجرى الهواء طلقاً ليشتمّه الناس غيرنا نسيما عليلا وحياة ولا نتجرعه نحن إلا حرقة أو غلة، فهو زفرة حرّى أو نهد. طالما أظلتنا غاشية كثيفة هوجاء من دخان هذا المستوقد بل جبل النار يظلم لها يومنا الطلق الأضحيان حتى ليخيل إلينا أن يومنا قد رغب عن لونه الأبيض الوضاح، أو كأنما صيغت لنا خاصة شمس سوداء تقدّ من أديم الليل ! !

أما وقع المجلات من مركبات (الصحة) زائرات المستوقد لا فى الفينات والفترات بل فى اليوم الأطول والليل الأليل فإنما يكون على أشده إذا تحين الأديب لخواطره الشعرية ساعة من فترة الأحياء وهدأة الحياة ! !

يقيناً لقد عشت هذا الزمن الطويل لا أتفهم كلمة المعرى في شعر « ابن هانئ الأندلسى » حيث يقول : « ما أشبه شعر ابن هانئ إلا برحى تطحن القرون » حتى إذا رصفت عطفتنا بالحجر وتخطرت عليها مركبات الصحة، أيقنت أننا نحن فى مطحن للقرون

هذا بعد أن رصفت العطفة بالحجر، أما قبل ذلك فقد كانت تستهل علينا السماء فى الشتوة شآبيب كأنما تخرقت بها السماء حتى تتوحل الأرض فأكثر مشية السكان إذ ذاك مشية المقيد فى الوحل

علىّ وإلا ما بكاء الغمائم   وفىّ وإلا فيم نوحُ الحمائم ؟

حمام السكرية وناهيك : حمام صحب الزمن حتى تحدث به التاريخ وظل ماثلا حتى زرناه، انقسم بتصفين فهو حمامان، قسم للجنس النشيط له باب من السكرية، وقسم للجنس اللطيف المدخلة إليه من عطفتنا ؛ بيد أن شطره الجميل قد عطل عندنا من العمل فعطل الحي من الحسن

كانت تبتكر إلى حمام السكرية هذا أسراب من الغيد الفواتن بل زهرات الصباحة من كل رشيقة القد نفاثة العينين بالسحر، فيلتقى لأجلهن عنده فصائل من عَبَدة الحسن رواد الغزل قوامها شباب من الطبقة الدنيا، فاشاء الحسن، لا، بل ماشاء الفحش من كلمة غزل حارة أو قالة عوراء إلى نظرة خائنة أو تجميشة باليد، ثم ماشاء الشغب والفتنة من تهاتر وإلحاد في الحسن. فكم صريع هنالك فى معترك الغزل والجدل بأعين الفتيات الساحرات وأيدى « الفتوات »

فتية تلك للشغب والشر خليقة بهذه الكلمة الفكهة من زميلنا الأديب الأستاذ على شوق قال :

« وملطمين » على الطريق تراهم   يتحرشون برائح أو غادى
فئة تقول لها إذا حييتها :   يا معشر السفهاء والأوغاد

إن للغزل فى مصر كلها مغانى ومواقف غراء مشهورة، منها حمام السكرية. فإن عد العرب من مغانى صباباتهم ومآلف غزلهم بانة الوعساء والرقمتين، عددنا المحملين وبين النهدين، أو تذاكروا « نجدا » «وسفح زرود» ، ذكرنا « بالمحمدى » و « أبي السعود » ،

أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها
مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة   أوراكهن صقيلات المراقيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية   وفى البداوة حسن غير مجلوب

لم يكن للعطفة فيما سلف عهد بالنور فكانت الحوذية والمكارون يربطون حميرهم ومركباتهم في جَنْبَتَيْها، فإذا أقبل الداخل إلى أهله فى الظلمة لم يرعه إلا صدمة من مركبة مسندة أو رمحة من حمار مرتبط

أنا أعمى وصاحب القوم أعمى ... فدعونا في ظلمة نتصادم

فاذا هو دامى الجبين ، دامى الفؤاد من شجى ولوعة

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يراق على جوانبه الدم

زَيّن لنا هذا بل زين لنا حسن الجدّ ولا نكذب الله، أن نكتب إلى ولاة الأمر في طلب النور ، ونمى إلينا حديث ذلك الكاتب الكبير الذي طلب إليه أن يكتب رسالة إلى وليّ أمر في طلب النور للمساجد فارتج عليه ولم يدر كيف يكتب ، فبينما هو نائم جاءه إبليس فقال له أكتب : إن في النور أنساً للسابلة ونفياً للريب والوحشة عن بيوت الله . فبدا لنا أن نساجل هذا الكاتب ونساير أسلوبه هذا في استجداء النور لعطفتنا وبيوتنا لا لبيت الله ، وهممنا بأن أكتب هذه الكلمة على طرازه الابليسي؛ بيد أنني تَنَبّهت الحياء فلم أكتب وليتني كتبت :

أيتها الوزارة الأريحية :

نحن أهل « عطفة الألابلي » في ظلمة مطبقة ، المشتكى إلى الله منها ثم إليك ، فهل أنت متسمحة فمحسنة إلينا بخطرة من النور ولمحة من الضوء فان في النور تنويهاً بمواقف الغزل عندنا والصبابة، وأنساً لآلف الصبوة، وهداية لمواقع القبلات والنظرات فلا يجمل أن يسلم الجمال ومناغاته إلى الظلمة وحيرة الموقف وإلى مثل كلمة الشاعر :

وبان بارق ذاك الثغر يوضح لى ... مواقع اللثم في داج من الظلم

على أن في النور عدا هاتيك الخلال النذر، من ومح الخير ، والنجاة من المركبات .

فلما استجابت الوزارة لهذه الضراعة والتخشع بعد أن كتبنا إليها — ولكن في غير هذه اللغة — استجابت لنا بمصباحين ضئيلين فاتري اللمح باهتي اللون كان العهد بالنور قبلهما أن تتحلل الظلمة تحته ، ولكنه نور افتر من « بارق ذاك الثغر » يتحلل تحت الظلمة

أما صرعى الكلاب والهررة الأليفة المفدّاة وما إليها من الفيران وبنات عرس فما تطوى لها جثة من جنبات العطفة وأقطارها ولا تكتم رائحة وإنما تحشر في بطون الهوام والطير وتصعد معها أرواح الساكنين من صرعى الجرائم والعلل

ستقبرني الطير كيلا أكون ... سواء وأمواتهم في الرجم

ليست صناديق القمامة التي ترصدها الوزارة في الطرقات والميادين إلا صورة كاذبة مختالة للنظافة كأنما تدفع بها عن العاصمة معرة النقص من القادرين أو تكف بها لذعة العيون والحدَق على فرط القذر والدمامة ، كما تعلق تميمة القروية البلهاء القذرة على محيّا وليدها الدميمة خيفة العين

ليس لدينا شيء معجب بحمد الله بل كل ما تباشره العين مما يشق على النفس والبصر ، سوى مدرسة أولية وسبيل أثري تحت المدرسة يتصدران العطفة . أما المدرسة فتحمل إلينا من ذكر العلم والتربية ما يندى على الكبد الحرّى برداً وروحا ؛ وأما السبيل فان يكن عطل آنفاً حتى ما يبض بقطرة ماء في طاعة المدنية والوقاية فهو يذكرنا بإحسان أسلافنا الأولين وبرّهم كالمحيا الفاتن شيّع عهد الصبا والفتنة وغيض منه ماء الحسن ربما أذكرك بتقاسيمه أيام كان يشرق بماء الحسن والفتنة

تبتكر الشمس فيبتكر معها قطعان من الباعة والصناع من صائح بالبامية والقلقاس ، إلى مبيض النحاس ، فينمقون بساهم المتعارفة تناهق الحمر فيمنون القائلة الشهية يومهم الأطول، حتى إذا تمشت الشمس إلى المغيب ، خلفتهم فصائل أخرى من الطراز الساخر تدق الدفوف، وتضرب بالكفوف ، ثم تتغنى بكل ما تتغنى به الإذاعة العامة ، فهم إذاعة متنقلة ليس يدري المستمع إليهم : أباعة هم يتغنون ، أم مغنون يبيعون ؟ !

طال ليلي وبتُّ كالمجنون ... واعترتني الهموم بالماطرون

هذا بعض ما نلاقي في عطفتنا وفي دارنا ، إلى أطفال من نشء الغوغاء والسوقيين ، لهم عدة التراب كثرة، في خسة التراب، مباءة أمراض، ومسيل أقذار، وخريجو شغب وحقة، ونبت تشرد وجهل ، كأنما عوض أهلوهم بكثرتهم ما افتقدوا من عزة العلم والجلال

يا فراخ المزابل ... ونتاج الأراذل

إسمعوا لا سمعتمو ... غير زور وباطل

نشء من الغوغاء لهم على ضؤولة الجرائم فتك الجرائم ، تفتك بالملات ويفتكون بالملات والجهالات

أليست هذه الطفولة العابثة اللاهية هي الطفولة الساطلة المتشردة حذوك النعل بالنعل ؟ وإذا كان يجمل بالدولة أن تحمل نشء الأمة على العلم والثقافة بسيف الاكراه القانوني فليس بمستنكر عليها أن تحمل هذا النشء على حذق الصناعات والفنون بالاكراه القانوني ، ولئن كان العلم سبيل العيش والحياة ، فإن الصناعات والعمل عيش وحياة

(البقية في العدد القادم)

حسن القاياتي